

الجباية في الاسلام^(١)

للأستاذ فارس بك الخوري

أستاذ على المالية والمرافعات المدنية

ورئيس المجلس النيابي السورى

استندت الجباية عند العرب على الأسس الآتية :

١ - على القواعد المستنبطة من الكتاب والسنة ؛

٢ - على ما استنه الخلفاء الراشدون ؛

٣ - على ما أخذوه عن الدول التي غلبوها على أمرها

فلم تكن أموال الدولة في أيام الرسول سوى الغنائم يخرجون خمسها للنبي وأهل بيته ويقتسمون الباقي بين المسلمين . وكانت الخزينة في عهده قائمة على ما يجتمع لديه من الصدقات والزكوات من ماشية ونقود وحبوب وعروض يتصرف بها في وجوه المصلحة العامة . ثم عند ما اتسع أمر الاسلام عمد إلى وضع الخراج . فجعل على سكان جزيرة العرب من المسلمين خراج . مقاسمة على حاصلات أرضهم من العشر إلى نصف العشر بحسب درجة الأرض من الخصب ونصيبتها من الري ، فكانت أرض الجزيرة بتمامها عشرية ماعدا خير فقد صالح يهودها على نصف حاصلات أرضهم . وكان يسم الماشية العائدة لبيت المال بميسم خاص ويتولى ذلك بنفسه ؛ وبلغت هذه الماشية في عهده نحو أربعين ألفاً . وبقي خمس الأفياء يعطى لأهل البيت حتى تولى الخلافة عمر بن الخطاب فعين الرواتب لمستحقها من أهل البيت ومن القائمين بخدمة الخليفة من الحاشية والبطانة وأجراها عليهم شهراً بشهر ، ورد الأثمان على بيت المال لتقسم على المسلمين

وعند ما توسع الفتح الاسلامي واستولى المسلمون على بلاد الروم والفرس في العراق والشام اختلف زعماء العرب في الخطة الواجب اتباعها باستحواز الأرض و العلو ، الذين عليها ، فاراد قوم من الصحابة وزعماء العرب أن يقتسموا

رشيق في تعليقه على حكاية شاعر مدح علواً ثائراً فدفعه المنصور حياً : إن ذلك الشاعر قد جنت عليه حماقه ، إذ ما للشاعر وللرج بنفسه في أمثال تلك المآزق وإنما هو طالب فضل ؟

واحتفى أدباء العربية بالالفاظ احتفاء متزايداً : فنشأ السجع والطباق والجناس والتورية وما إليها في الشعر والنثر معا ، حتى بدا اللفظ منافساً للمعنى مزاحماً له على ابتغاء القارى . وفهمه ، بل صارت له في النهاية المكانة الأولى ، وتضامل المعنى بين يديه واختفى ، وأصبحت مهمة الأدباء موجهة لا إلى النوص على حقائق الوجود وبواطن الشعور . بل إلى اقتناص شوارد الكلم وبارع النكات اللفظية ، فعيسى بن هشام مثلاً يقول إنه كان بطوف البلدان وقصارى لفظة شرود أصيدها ، وكلة بليغة أسترزدها ، وعيسى بن هشام أيضاً يعيب على الجاحظ أنه قليل الاستعارات قريب العبارات ، متقاد لعيان الكلام يستعمله ، نفور من معنائه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟

ولنما قصر بالأدب العربي عن غايات الفن المطلق ، ما قيد به من اتصال بالأمراء ، وما أرق به من تقليد للقديم : أدخلت الأولى فيه التكلف والصنعة ، وأبقت فيه غرضاً خارجاً عن نفسه وصرفت الثانية همه إلى اللفظ البليغ والعبارة الطنانة ، التي تدل على بصر باللغة وتمكن من آثار خزلها المتقدمين ؛ ويتجلى الفرق بين مدى الأدب الانجليزي من الفنية الخالصة ، ومدى الأدب العربي منها ، من موازنة حياة الفن الخالص والتأمل الدائب ، والمعالجة المستمرة لاشكال الأدب ومواضيعه ، والطرق المتكررة لمذاهبه ومناحيه ، التي كان يحياها وردزورث وشلي وتينسون مثلاً ، وبين حياة البحترى والطائي والمتننى المتصلة أوثق اتصال بالامراء ومناذمتهم وتلقهم ، كان الأولون كأنهم كنه الفن المنقطعون إلى آلهته في محاريبه المقدسة المصونة ، وكان الآخرون يعيشون في جلبة البلاطات وضجة المحافل والمراكب

فالادب الانجليزي بعد أن توفرت له أسباب الحضارة والثقافة والتدوين والفراغ ، التي لا بد منها لبلوغ الأدب أوج رقيه ، توفرت له أيضاً ميزتا الاستقلال بنفسه عن إرادة الحكام وخدمتهم ونزعة التجديد والحرية التي لا تقلد الماضي ولا تقف عند حدوده وبهاتين الميزتين إلى تلك الأسباب تجمعت للأدب الانجليزي كل وسائل التطور الطبيعي وبلوغ آماذ الفن الخالص ؛ أما الأدب العربي فأعوزته هاتان الميزتان ، فعمد به لإعوازهما في مجال الفن ، وأبقى به بعض شوائب الصناعة ، ومن ثم أمكن القول بأن الأدب الانجليزي بلغ طور الفن ، أما الأدب العربي في جملة فظل أقرب إلى الصناعة الفنية ؟

نحري أبو السعود

(١) فصل من كتاب « علم المالية » يقوم بطلبه ونشره « مكتب النشر العربي بدمشق »

ترك الأرض في أيدي أصحابها وفرض الخراج عليها هو توفيق من الله فيه الخيرة لجميع المسلمين؛ ولو لم يفعل ذلك لما شجنت الثغور وقويت الجيوش على السير في الجهاد

وفي عهده وضعت القاعدة القائلة: «إما دار من دور الأعاجم ظهر عليها الامام وتركها في أيدي أهلها فهي أرض خراج؛ وإن قسمها بين الذين غنموها فهي أرض عشر. وكل أرض من أراضي الأعاجم صالح الامام أهلها عليها وجعلهم ذمة في أرض خراج، فضرب على الأرض الخراجية مالا مقطوعاً يستأده أصحابها العاملون بها في حالتي الخصب والجذب؛ وجعل هذا الخراج يختلف باختلاف خصب الأرض وأسلوب الري والقرب من المدن الحافلة بما في ذلك من العون على كثرة الاستغلال وبيع الغلة؛ وجعل العشر في الأراضي العشرية على ما يشرب من ماء المطر ونصف العشر على ما يسقى بالدلو، وجباه على ما يبق في أيدي الناس من الغلة الأرضية كالحبوب ووضع أي رفعه عما لا يبقى كالبطيخ والخضر، كما وضعه عن المسلمين في البلاد التي فتحها وأقطعهم إياها، وقال ليس على المسلمين عشر وإنما العشر على اليهود والنصارى. وقال: يامشر العرب احمدا الله الذي وضع عنكم العشر. فهو أول من مسح الأرض ودون الدواوين ووضع أصول الجباية ورقم الداخل إلى بيت المال والخارج منه. وهو الذي رتب الجزية على الرجال من غير المسلمين وكلف غنيهم بثمانية وأربعين درهماً، ومتوسطهم بأربعة وعشرين، وفقيرهم باثني عشر في السنة، وقال: درهم في الشهر لا يعوز أحداً. وجعل المعادن لمخرجها على أن يؤخذ منه خمس المستخرج لبيت المال؛ وكذلك ما يخرج من البحر من حلية وعنبر. وهو الذي وضع أكثر القواعد المالية فلم يجرؤ من جاء بعده على مخالفتها، فبقى جانب عظيم منها نافذاً في عهد الأمويين والعباسيين واستمر بعضها حتى الزمن الحاضر.

كانت منابع بيت المال في عهد الخلفاء الراشدين منها المقرر ومنها الطاريء؛ فالمقرر هو الخراج والعشر والصدقات والجزية، والطاريء هو العشر والغنائم والافياء والاموال المستخرجة

الأرضين التي يفتحونها غنيمة بينهم ويكون لكل منهم نصيب منها مع من عليها من السكان فيبقى السكان اقناناً أي ارقاء ملحقين بالأرض يباعون معها وينقلون بانتقالها. فقال عمر: فكيف بمن يأتي بعدكم من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت بمن عليها وحيزت ارثاً عن الآباء؟ ما هذا برأى. فقال عبد الرحمن ابن عوف: فما الرأي اذن؟ ما الأرض والعلوج الا ما آفاه الله على المسلمين. قال عمر: اذا اقتسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فماذا تسد الثغور وما يكون للذرية؟ وما زالوا به حتى جمع ندوة من المهاجرين والانصار قوامها عشرون رجلاً من أهل الحنكة والعقل واشتشارهم في الامر وقال لهم: سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا اني اظلمهم حقوقهم وانى أعوذ بالله ان اركب ظملاً؛ لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت، ولكن رأيت انه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله واخرجت الخمس فوجهته على وجهه، وأنا في توجيهه، وقد رأيت ان أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فينا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم. أرايتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها؟ أرايتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم؟ فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الأرضون والعلوج؟ فقالوا جميعاً: الرأي رأيك فتعما قلت وما رأيت، ان لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ولم تجر عليهم ما يتقوتون به رجع أهل الكفر الى مدنها. وكان عثمان وعلى وطلحة بين القائلين بقول عمر. فقال: من لي برجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعته الى أهم ذلك فان له بصراً وعقلاً وتجربة. فولاه مساحة أرض السواد من العراق فمسح سواد الكوفة وجباه مائة مليون درهم، وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج الى المسلمين. قال أبو يوسف القاضي: ان الذي رآه عمر من

يخزن شي منها . قدم أبو هريرة على عمر بن الخطاب من البحرين فقال له عمر : ما معك ؟ قال : خمسمائة ألف درهم . فدهش عمر لكثرة وقال له : أنت تدري ما تقول ؟ قال : نعم مئة ألف خمس مرات ، فصعد المنبر وقال : أيها الناس جاءنا مال كثير ، فإن شئتم كلنا لكم كيلا ، وإن شئتم عددنا لكم عدأ ، وهذا مال على دهشة العرب بوفرة الاموال التي كانت ترد عليهم من فتوحاتهم ذهباً وفضة وعلى الاسراع في توزيعها بين المسلمين . وكان أبو بكر وعلى لا يقلان عن عمر في الزهد بالمال وتقسيمه بين الناس بالعدل كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بالنقود الكسروية والرومية من الدراهم والدنانير وبقي هذا حالهم إلى عهد عمر ف ضرب الدرهم وجعل وزنه من الفضة أربعة عشر قيراطاً من قرايط المثقال العشرين ، فكانت كل عشرة دراهم من دراهمه وزن سبعة مثاقيل ؛ ثم ضرب دراهم أخرى جعل وزن الواحد منها اثني عشر قيراطاً . وكان يضربها على نقش الدراهم الكسروية ويزيد في بعضها عبارات اسلامية كعبارة التوحيد أو عبارة الحمدلة . وضرب بعده عثمان دراهم نقش عليها عبارة التكبير . وحذا الخلفاء والامراء حذوهم ف ضربوا الدراهم والدنانير بعبارات وأوزان مختلفة . وكان أعظم الذين ضربوا النقود معاوية وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك وغيرهم . وإنما كان عبد الملك بن مروان أول من ضرب الدنانير الاسلامية الصرفة بدون نقوش كسروية ، فكان وزن دينارها يتراوح من أربعة غرامات وخمس الغرام إلى أربعة غرامات وثلاثي الغرام ، فهو بذلك يقارب نصف الجنيه الانكليزي الذي وزنه أربعة غرامات وربع الغرام من الذهب . وأما الدرهم الفضي فكان وزنه أقل من ثلاثة غرامات ، وأكثر عبد الملك من ضرب هذه النقود العربية في أيامه في الشام ومصر والعراق ، وانتشر استعمالها فاستغنى العرب بها عن نقود الروم والفرس ، وصار للعرب نقود خاصة بدولتهم ثم بها استقلالها المالي

فارس الخوري

من العمال وعوائد المصادرة وأمثال ذلك . فالخراج هو ما كان يوضع على الأرض التي استولى عليها المسلمون وتركوها في أيدي أهلها ملكاً لهم ، فكانوا يجعلونه أحياناً خراجاً موظفاً ثابتاً كما جرى في سواد العراق ، وأحياناً خراجاً مقاسمة . وبقيت ضياع البطارقة والامراء المنهزمين ملكاً لبيت المال يقبلها العمال ويستثمرونها لحساب الخزينة العامة . والعشر هو الحصة الشائعة المضروبة على حاصلات الأرض التي أسلم أهلها عليها من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن ، أو ملكها المسلمون عنوة من قوم لا تقبل منهم الجزية كعبدة الاوثان والمجوس ؛ ومثلها الأرض التي احتازها المسلمون وقسموها بين الغنائم

والصدقات هي ما يعطيه المسلمون من أموالهم المنقولة ومكاسبهم ؛ وكانت في الغالب بمعدل واحد في الأربعين أو ربع العشر ؛ وتجي على الأكثر من الماشية ، فكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين يحبون الصدقات ويردونها على بيت المال لتصرف في مصالح الخلافة . ولعل هذا الأساس بقي معتمداً عليه في الاسلام وتجلي في عهد الخلافة العثمانية بأموال الاغنام والسائمة التي مازالت إلى اليوم تجي على هذه النسبة نفسها توسعت منابع الجباية بعد ذلك فتناولت مطارح أخرى من ذلك المكوس (الجمارك) التي كانوا يسمونها العشور لانها كانت تؤخذ بمعدل واحد من العشرة ، وأول ظهورها في الاسلام على عهد عمر بن الخطاب عند ما كتب إليه أبو موسى الاشعري عامله في العراق يستشير به بما يأخذه الاجانب من تجار المسلمين الذين يدخلون بلادهم لبيع بضاعتهم ، فكتب إليه عمر أن خذ أنت منهم كما يأخذون من تجارنا ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين ربع العشر بقدر الزكاة المفروضة عليهم . فانتشرت قاعدة التعشير في ثغور المسلمين وحدودهم واستمرت طول أيام دولتهم .

ليس لدينا إحصاء يعرف منه ما كان يدخل لبيت المال في عهد الراشدين من الخراج أو العشور أو الزكوات أو الاختاس أو غيرها من منابع الخزينة ، وجل مانع له من هذه الجهة أن الدخول كانت جسيمة جداً وجميعها تنفق في المصالح العامة ولا